

**الاجتهاد التفسيري بالقصة والأمثال عند وهبة
الزحيلي في تفسيره (التفسير المنير في العقيدة
والشريعة والمنهج)**

**Interpretive Ijtihad Based on Qur'anic
Narratives and Parables in Wahbah al-
Zuhayli's Al-Tafir al-Munir fi al-'Aqidah
wa al-Shari'ah wa al-Manhaj**

م.د. عدنان ياسين جاسم محمد

Dr. Adnan Yaseen Jasim Mohammed

مكان العمل: وزارة التربية/ مديرية تربية الأنبار/ قسم تربية الكرمة

**Affiliation: Ministry of Education / Anbar Directorate of
Education / Karma Education Department**

Email: yasyndnan19@gmail.com

الكلمات المفتاحية: (الاجتهاد، القصة، الأمثال، وهبة، التفسير المنير).

**Keywords: (Ijtihad; Qur'anic Narratives; Parables; Wahbah al-
Zuhayli; Al-Tafsir al-Munir).**

الملخص:

يتناول هذا البحث موضوع الاجتهاد التفسيري من خلال القصص والأمثال في القرآن الكريم، بوصفهما من أبرز الأساليب البيانية والتربوية التي اعتمدها الخطاب القرآني في عرض الهدايات الإيمانية، وترسيخ المعاني العقدية، وتوجيه السلوك الإنساني. ويهدف البحث إلى الكشف عن حقيقة القصة القرآنية والمثل القرآني من حيث المفهوم والخصائص والأنواع، وبيان أبعادهما الدلالية والبلاغية، ودورهما في بناء المعنى التفسيري وإثراء الدلالة، مع إبراز أثرهما في تقريب المفاهيم الغيبية إلى الأذهان، وترسيخ القيم الأخلاقية والتربوية في النفوس. كما يسعى البحث إلى دراسة التطبيقات العملية لهذا اللون من الاجتهاد التفسيري في تفسير الشيخ وهبة الزحيلي (التفسير المنير)، من خلال تحليل نماذج مختارة تظهر منهجيته في توظيف القصص والأمثال في خدمة المعنى القرآني.

وقد اعتمد الباحث المنهج الوصفي التحليلي، القائم على استقراء النصوص القرآنية المتعلقة بالقصص والأمثال، وتحليلها في ضوء أقوال المفسرين، مع التركيز على استنباط الزحيلي، وبيان أوجه توظيفه لهذه الأساليب في تفسير الآيات وربطها بالسياقات العقدية والتربوية والاجتماعية. كما تفتت المصادر اللغوية والبلاغية لتحديد الأبعاد الدلالية الدقيقة للقصص والأمثال، والكشف عن وظائفها الفنية والتأثيرية. وقد توصل البحث إلى عدد من النتائج المهمة، من أبرزها: أن القصص القرآنية تمثل أداة فاعلة في تثبيت العقيدة، وبناء الوعي الإيماني، وربط السنن الإلهية بواقع الإنسان؛ وأن الأمثال القرآنية تسهم في تجسيد المعاني المجردة وتقريبها بصورة حسية مؤثرة، تُعين على الفهم والتدبر. كما تبين أن تنوع الأساليب القرآنية في عرض القصص والأمثال يُعد مظهرًا من مظاهر الإعجاز البلاغي والتشريعي، وأن منهج الزحيلي يمتاز بالتكامل بين التحليل البياني والاستنباط التربوي، مع عناية واضحة بربط النص القرآني بواقع الحياة المعاصرة، بما يُعزز من فاعلية التفسير في توجيه السلوك الإنساني وبناء القيم.

Abstract:

This study examines interpretive ijtihād through Qur'anic narratives and parables, as two of the most prominent rhetorical and pedagogical methods employed by the Qur'anic discourse to convey guidance, establish doctrinal meanings, and direct human behavior. The research aims to clarify the concept of Qur'anic narrative and parable in terms of their definitions, characteristics, and types, while exploring their semantic and rhetorical dimensions and their role in constructing exegetical meaning and enriching interpretation. It also seeks to demonstrate their effectiveness in rendering metaphysical concepts more accessible and in instilling ethical and educational values. Furthermore, the study highlights practical applications of this interpretive approach in the exegesis of Shaykh Wahbah al-Zuhaylī in his work al-Tafsīr al-Munīr, through the analysis of selected examples that illustrate his methodological use of narratives and parables in serving Qur'anic meanings.

The study adopts a descriptive-analytical methodology based on examining relevant Qur'anic texts on narratives and parables and analyzing them in light of classical and modern exegetical scholarship, with particular emphasis on al-Zuhaylī's insights. It further investigates how he employs these rhetorical forms to interpret verses and relate them to doctrinal, pedagogical, and social contexts. Linguistic and rhetorical sources are also utilized to identify the precise semantic dimensions of narratives and parables and to uncover their functional and aesthetic impact.



The study concludes with several significant findings. Qur'anic narratives function as an effective means of strengthening faith, developing spiritual awareness, and linking divine laws with human reality. Qur'anic parables contribute to concretizing abstract meanings and presenting them in vivid, perceptible forms that enhance comprehension and reflection. The diversity of Qur'anic styles in presenting narratives and parables represents an aspect of its rhetorical and legislative inimitability. The study also demonstrates that al-Zuḥaylī's methodology is characterized by an integration of rhetorical analysis and pedagogical inference, along with a clear emphasis on connecting the Qur'anic text to contemporary life, thereby enhancing the practical relevance of exegesis in guiding human conduct and shaping values.

المقدمة:

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلامُ على أشرفِ الأنبياء والمرسلين، سيّدنا محمّدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين، أمّا بعد: فإنَّ القرآنَ الكريمَ قد جاء بمنهجٍ بيانيٍّ فريدٍ في عرضِ الحقائقِ العقديّةِ والتربويّةِ، ومن أبرزِ وسائله في ذلك القصصُ والأمثالُ، إذ يجمعُ بين البيانِ والتأثيرِ، وبين الإقناعِ العقليِّ والاستمالةِ الوجدانيّةِ، فيصوغُ المعانيَ في صورٍ حيّةٍ تنفُذُ إلى القلوبِ وتحرّكُ العقولَ. ومن هنا تبرزُ أهميّةُ دراسةِ الاجتهادِ التفسيريِّ القائمِ على القصّةِ والمثلِ القرآنيِّ، لما له من أثرٍ بالغٍ في كشفِ دلالاتِ النصِّ القرآنيِّ واستنباطِ هداياته.

وتتبعُ أهميّةُ هذا البحثِ من كونه يتناولُ جانبًا دقيقًا من مناهجِ التفسيرِ، وهو توظيفُ القصصِ والأمثالِ في بيانِ المعانيِ القرآنيّةِ، مع إبرازِ جهودِ العلماءِ، ولا سيّما اجتهاداتِ الشيخِ وهبةِ الزحيليِّ، رحمه الله، في استثمارِ هذه الوسائلِ البيانيّةِ في التفسيرِ، بما يعمّقُ الفهمَ ويقربُ المعنىَ ويثبتُ القيمَ في النفوسِ.

ويهدفُ البحثُ إلى بيانِ مفهومِ القصّةِ والمثلِ في القرآنِ الكريمِ، والكشفِ عن أهدافهما وأنواعهما، وبيانِ أثرهما في التفسيرِ، مع تحليلِ نماذجٍ تطبيقيّةٍ من تفسيرِ الزحيليِّ، تُبرزُ منهجهُ في الاستنباطِ والهدايةِ من خلالِ القصصِ والأمثالِ.

وقد اعتمدَ الباحثُ في هذا العملِ على المنهجِ الوصفيِّ التحليليِّ، من خلالِ عرضِ المفاهيمِ وتأصيلها، ثم تحليلِ النصوصِ القرآنيّةِ وتفسيراتِ العلماءِ لها، مع ربطِ ذلك بالدلالاتِ التربويّةِ والعقديةِ.

وجاءت خُطّةُ البحثِ في مبحثين رئيسيين: تناولِ الأوّلِ الاجتهادِ التفسيريِّ بالقصّةِ، من حيثِ مفهومها وأهدافها وأنواعها وتطبيقاتها، وخصّ الثاني الاجتهادِ التفسيريِّ بالأمثالِ، متضمّنًا تعريفها وأقسامها واستنباطاتِ العلماءِ منها، مع عرضِ نماذجٍ تطبيقيةٍ توضحُ أثرها في التفسيرِ.

المبحث الأول: الاجتهاد التفسيري بالقصة

المطلب الأول: القصة في اللغة والاصطلاح:

أ) القصة في اللغة: القَصُّ: تتبُّع الأثر، والقِصص بفتح القاف: رواية الخبر، والخبر المقصود، والأخبار المتتابعة، والأثر، قال تعالى: (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ) (سورة يوسف:3) (ابن فارس، 1414هـ، 645). والقِصص، بكسر القاف: جمع القِصة التي تكتب. ومن ذلك اشتقَّ القصاص: وذلك أن يُفعل بالشخص مثل فعله. (الخالدي، (ب،ت)، 21)

والفرق بين القِصص، بكسر القاف، والقِصص، بفتحها، هو أنَّ الأولى: جمع قِصة، تقول: فلان يكتب القِصص ويرويها. والثانية: الأخبار والروايات التي ينتبِّعها القاصُّ ويرويها (الدقور، 2007م، 7)

ومن الجدير ملاحظته أنَّ القرآن الكريم لم يستعمل لفظ (القِصص) إلا بالفتح، ولعلَّ في ذلك إشارة إلى تميُّز طريقة القرآن وأسلوبه في عرض هذه الأحداث والوقائع التي تضمَّنتها قصصه، كما تميِّز من قبل بذكر الأحداث والأخبار الصحيحة التي لا خيال فيها.

ب) القِصة في الاصطلاح: وهي حكاية نثرية، تُسَمَّدُ من الخيال أو الواقع أو منهما معاً، وتُبنى على قواعد معيَّنة من الفنِّ الكتابيِّ، أو هي: وسيلة للتعبير عن الحياة أو قطاعٍ معيَّنٍ من الحياة يتناول حادثَةً واحدةً أو عدداً من الحوادث بينها ترابطٌ سرديٌّ ويجب أن تكون لها بدايةً ونهايةً. (حسن، 1970م، 9، الزيات، (ب،ت)، 739)

أو هي: فنٌّ أدبيٌّ يتناول حادثَةً أو مجموعةً حوادث، تتعلَّقُ بشخصيةٍ أو مجموعة من الشخصيات الإنسانية في بيئةٍ زمنيةٍ ومكانيةٍ ما، تنتهي إلى غايةٍ أو هدفٍ بُنيت من أجله القِصة بأسلوبٍ أدبيٍّ ممتعٍ، كما أنَّها تجمع بين الحقيقة والخيال. (فهد، 2007م، 11)

المطلب الثاني: مفهوم القِصة في القرآن الكريم:

وردت مادة (قَصَص) في القرآن الكريم على اختلاف اشتقاقها بين اسم وفعل ثلاثين مرَّةً، أربع منها في صيغة (القصاص). (عباس، 1978م، 11)

وقصص القرآن الكريم يُراد بها: إخباره عن أحوال الأمم الماضية، بما تحويه من حوادث غابرة، مثل قصص الأشخاص الذين لم تثبت نبوتهم مثل أهل الكهف وابني آدم، وإخباره عن النبوات السابقة؛ أي: ما اختصَّ بالأخبار والأنباء الواردة عن الرُّسل والأنبياء وخبرهم مع أقوامهم، وإخباره عن الحوادث الواقعة في زمن الرُّسول، صلَّى الله عليه وسلَّم، مثل: الغزوات، وحوادث الهجرة، والإسراء ونحوها. (قطب، 2004م، 240)

يقول الدكتور وهبه الزحيلي: القصة في القرآن الكريم تذكيرٌ دائمٌ بأحداث الأمم الغابرة والأقوال البائدة، الذين تنكبوا صراط الهداية الربانية وتكفروا لرسالات الأنبياء، وهدى القادة المصلحين، فما ينفع الندم حينئذ للعصاة الظلمة، ولا تقيد الشكوى والحسرة والألم، وإنما يجب على العقلاء الاتعاظ والاعتبار ووقاية أنفسهم من أسباب الدمار والخراب والإبادة الشاملة، واستتصال دابر الجريمة والمخالفة والعودة السريعة إلى دائرة الحق والاستقامة والهداية. (الزحيلي، 1998م، 17)

وقصص القرآن الكريم فيها عرض مبادئ الدين والدعوة إليها، وترسيخ المفاهيم الإسلامية في قلوب الناس وتربيتهم على أساسها. ولا يُعدُّ القرآن الكريم كتاباً تاريخياً يُرجع إليه لمعرفة أخبار الأمم الماضية، إلا أنَّ المؤرخين يستدلُّون به في كتبهم بما أخبر الله به في القرآن، فلا تهدف القصة القرآنية إلى التاريخ (عباس، 1978م، 14)، إنما تأخذ من الواقع التاريخي ما يفي بتحقيق هدفها الأصيل، كما لا تهدف إلى المعرفة الثقافية، ولا إلى المتعة والتسلية، فمن أراد ذلك فليلتسه في غير قصص القرآن، إذ إنَّ هدف القصة القرآنية الأصيل هو الدعوة والتربية، وعلاج موضوعات القرآن الكريم.

وقد أورد الله سبحانه وتعالى هذه القصص في القرآن الكريم بأساليب ذات بلاغة مؤثرة، تعجب القراء كلهم من الأعمار المختلفة، وتعطي كل قصة من هذه القصص رسالة عظيمة، لمشركي مكة وحدهم، أو المؤمنين في مكة والمدينة، بل إنَّها تخاطب الناس في العالم كله (قطب، 2004م، 245).

وأسلوب القصة أمرٌ محبَّبٌ للناس صغاراً وكباراً، فكانت القصة القرآنية ذات مغزى عميق مؤثر في مشاعر الإنسان، وكان سرد أحداث القصة التاريخية عبرةً وعظةً تبين لنا قوة الصراع بين الخير والشر، وعدم الاغترار بالدنيا، والعمل للأخرة دار الخلد والبقاء والنعم الأبدي (الزحيلي، 1998م، 15).

المطلب الثالث: أهداف القصة القرآنية وأنواعها:

أولاً) أهداف القصة القرآنية:

إنَّ الهدف الأصيل من سرد القصص وأخبار الأمم الماضية ليس مجرد الإخبار عن حوادث ووقائع قد وقعت في التاريخ وتدوينها للأجيال القادمة.

وإن كانت القصة القرآنية وسيلةً فنيةً أدبيةً تعبيريةً، إلا أنَّ لها خاصيةً تميّزها عن غيرها، ألا وهي الصدق الموضوعي والشعوري، فلا مكان للإغراق في الخيال والأسطورة والإسفاف القيمي والأخلاقي.

يقول وهبة الزحيلي، رحمه الله تعالى، عند حديثه عن أهدافها: القصة القرآنية ليست تاريخاً ولا سرداً للوقائع التاريخية فقط، وإنما هي هداية وموعظة، يستفاد من أسبابها ونتائجها بالنسبة للأمم والجماعات. (الزحيلي، 1998م، 23)

إذاً، الهدف الأصيل من قصص القرآن، هو ما تحمله تلك الأخبار من مواعظٍ وعبرٍ ترشد قراءها إلى الهداية، والدعوة إلى الدين القيم، والنهج القويم والتربية في إطار الدين، وتساعدهم على التربية وترسيخ المفاهيم الإسلامية في قلوبهم. (حسن، 1970م، 23)

يقول الزحيلي، رحمه الله تعالى: «بعد أن قصَّ الله على نبيه أخبار الأنبياء مع أقوامهم، ذكر فائدة تلك القصص وحصرها في نوعين من الفائدة وهما: تثبيت الفؤاد على أداء الرسالة وعلى الصبر واحتمال الأذى، وبيان ما هو حقّ وعظة وعبرة وذكرى تذكر المؤمنين» (الزحيلي، 1971م، 1085)

ويمكن إجمال أهداف القصص القرآني فيما يأتي:

(أ) تثبيت القلوب والأفئدة: أورد الله جلَّ جلاله بعض القصص تشبيهاً لقلب حبيبه ورسوله ﷺ، وتسلياً له ولقلوب المؤمنين جميعاً، قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ نَفْسُ عَلِيكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنَبِّئُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: 120]. فثبت سبحانه وتعالى قلب النبي ﷺ في سبيل الدعوة إلى الله، ويشدّ همته في مواجهة الأعداء والكفار بسرد هذه القصص، فيتضح له بأنه ليس وحده على طريق الدعوة، وقد سبقه الأنبياء والصالحين، وقد واجهوا ما واجهه من المشقات. (نوفل، 2007م، 65)

(ب) العبرة لأولي الألباب: وقد جاء هذا الهدف العظيم صراحة بعد سرد قصة يوسف، عليه السلام، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (سورة يوسف: 111)، فقد أكد الله تعالى للنبي أنّ هذه القصة ما وردت للتسليّة والتّرفيه، وإنما للاستفادة منها وللعبرة بما رفع من البلاء والمشقات. (نوفل، 1989م، 121)

والقصة القرآنية أداةً عمليةً ناجحةً لتربية النفس وتقويم السلوك، وتصحيح الاعتقاد وتوجيه الإنسان نحو عبادة الله وحده. (الزحيلي، 1998م، 91)

(ج) التّفكّر والتّدبر: يكرر القرآن الكريم السؤال عن التّفكّر والتّدبر في سنن الله في الأمم المسابقة وآياته في الكون، ويردده مرّاتٍ عديدة. إنّ القرآن يهتمّ بالتّفكّر اهتماماً بالغاً، قال تعالى: ﴿فَكَأَيُّنَ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبُرُّ مَعْطَلَةٌ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ (45) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (سورة الحج: 45-46).

ولا يخفى الترابط بين الهدفين السابقين، إذ لا يمكن للإنسان أن يصل إلى العبرة دون تفكّر وتدبّر.

ومن أهداف القصص القرآني أيضاً: تعميق العقيدة في النفوس، وخلق تغييرات جذرية في المجتمعات، وتبادل الحقائق العلمية المتعلقة بالكون والحيوان والطبيعة، والتسامي بالإنسان ليكون متميزاً. وهكذا تكون هذه القصص منارةً يهدي الناس إلى السعادة الخالدة ويخرجهم من الظلمات إلى النور. (العامود، ب، ت، 44)

ثانياً)) أنواع القصص القرآنية:

يمكن أن نقسم القصص الواردة في القرآن الكريم إلى ثلاثة أنواع بحسب اختلاف الأشخاص أو الحوادث، وذلك على النحو الآتي:

النوع الأول: قصص الأنبياء، وقد تضمنت هذه القصص دعوتهم في قومهم، وموقف المعاندين منها وأعمالهم الفاسدة والفاجرة وردود أفعالهم للدعوة، وتثبيت الأنبياء والمؤمنين معهم، كقصص آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى، عليهم السلام.

النوع الثاني: قصص تتعلق بحوادث غابرة أو أشخاص لم تثبت نبوتهم، كقصص أصحاب الكهف، وذي القرنين، وجالوت وطالوت، وأصحاب السبب وغيرهم.

النوع الثالث: قصص تتعلق بحوادث وقعت في زمن الرسول ﷺ، كقصّة غزوة بدر وأخذ وغزوة حنين وتبوك، وكذا يشمل أيضاً قصّة الهجرة والإسراء والمعراج وغيرها من وقائع حدثت في زمن الرسول ﷺ.

وقد تكررت القصص في القرآن في غير ما موضع واحد، وبأساليب مختلفة، فتارةً تكون بالإيجاز، وتارةً تكون بالإطناب، وحيناً تكون بالتقديم، وحيناً تكون بالتأخير، وقد بين العلماء في كتبهم أسباب هذا التكرار وفوائده. (عبد الفتاح، ب، ت، 78)

فالقصة المتكررة تتميز باختلاف أسلوبها، ولغتها، وقالب قصّها، فلا يملّ القارئ بتكرار هذه القصص؛ لأنّه يحصل في كلّ مرّة على فوائد جديدة، فتمكّن العبر من هذه القصص في القلوب، فعلى سبيل المثال تكرر قصّة موسى، عليه السلام، مع فرعون يؤكّد أنّ الحقّ سينتصر على الباطل من دون أدنى شك. (زايد، 2007م، 55)

المطلب الرابع: الاجتهاد التفسيري من قصص القرآن الكريم عند الزحيلي:
قال تعالى: (وَيَادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (19) فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءِئِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (20) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ الصَّاحِبِينَ (21) فَدَلَّلَهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ (22) قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ

الْخُسْرَيْنِ (23) قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَّعٌ إِلَىٰ حِينٍ (24)
قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ) (ورة الأعراف: 19-25)

يقول الشيخ الزحيلي، رحمه الله تعالى: يُراد بهذه القصة إرشاد النَّاسِ إلى طرق الهداية، وتحذيرهم من وساوس الشياطين، فإنَّ الشَّيْطَانَ بسبب حسده لآدم وحواء سعى في إخراجهما من الجنَّة بمكره وخديعته، ليسلبهما ما هما فيه من النِّعمَة، قال الحسن البصري: كان يوسوس من الأرض إلى السَّماء، وإلى الجنَّة بالقوَّة الفوقيَّة التي جعلها الله تعالى فيه (الزحيلي، 1991م، 344).

قال تعالى: (وَأَتَىٰ عَلَيْهِمْ نَبَأُ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ۖ يٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ (71) فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِن أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمْرٌ أَن أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (72) فَكَذَّبُوهُ فَجَبَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَكَ وَجَعَلْنَاهُمْ خُلَفَاءَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ) (سورة يونس: 71-73).

قال الزحيلي، رحمه الله تعالى: ذكر الله تعالى في قرآنه مجموعةً من قصص الأنبياء، موساةً للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليتأسى بهم، ويأنس بسيرتهم، فتَهون عليه الشَّدائد والمكائد، ويتعظ مشركو مَكَّةَ بعاقبة المكذِّبين رسلهم قبلهم.

وتتعدَّد أساليب بيان القصة بحسب المناسبات وما يقتضيه المقام، وهذه الآيات وصفٌ سريعٌ لقصة نوح، عليه السَّلام، مع قومه: أخبر أيُّها الرَّسولُ كَفَّار مَكَّةَ الذين يكذِّبونك بخبر قوم نوح الذي كذَّبوه، كيف أهلكهم الله بالغرق، فيعاملون بمثل ما عومل به مَنْ تقدَّمهم.

اذكر لهم حين قال نوح لقومه: يا قومي إن كان قد شقَّ أو عظم عليكم قيامي بوعظكم من كلام ونحوه، وتذكيري إيَّاكم بالوعظ والزَّجر بالأدلة والبراهين الدَّالة على وحدانيَّة الله وعبادته، فإنِّي توكلت على الله وفوضت أمري إليه ووثقت به، فلا أبالي بعدئذ بما أوديت، ولا أكفُّ عن دعوتي ورسالتي، فاعزموا على ما تريدون من أمر تفعلونه بي، أنتم وشركاؤكم الذين تعبدونهم من دون الله من الأصنام والأوثان.

ولا تجعلوا أمركم الذي تعتزمون خفياً مشكلاً بل أظهره لي، وتبصَّروا فيه، ثم نفِّدوا ذلك الأمر بالفعل، ولا تؤخِّروني ساعةً واحدةً عن تنفيذ هذا الحكم المقضي، فإنِّي لا أبالي بكم ولا أخاف منكم؛ لأنكم لستم على شيء، والله عاصمي وحاميٍّ ومسلمي من أذاكم (الزحيلي، 1991م، 458).

وهذه غاية الثقة بالله والاعتماد عليه، والاستهانة والاستخفاف بمن دونه، فعلى المؤمن أن يعتصم بالله ويثق بوعدده، ويعتمد على ربه، فإن العاقبة في النهاية له.

فإن أعرضتم عن تكثيري، وكذبتكم، ولم تؤمنوا برسالتي، ولم تطيعوني فيما أدعوكم إليه من توحيد الله وعبادته، فإنني لم أطلب منكم على نصحي إياكم شيئاً من أجرٍ أو جزاءٍ، إن ثواب عملي وجزائي على الله ربي الذي أرسلني إليكم، وأمرني أن أكون من المسلمين، أي: المنقادين الطائعين الممتثلين لما أمرت به من الإسلام والخضوع لله عز وجل.

ثم أخبر الله سبحانه وتعالى عن مصير قوم نوح المكذبين، وفي ضمن ذلك الإخبار توعدهم للكفار بمحمد صلى الله عليه وسلم، إذ ضرب المثال لهم، فحالك من التكذيب تشبه حال الأقدمين بالثقة والتعذيب، لقد أصرروا على تكذيب نوح عليه السلام، فنجاه الله والمؤمنين به بحملهم في السفينة التي صنعها بأمر الله، وجعل الله الناجين مع نوح خلائف أولئك الهالكين في عمارة الأرض وسكانها من بعدهم، وأغرق الله بالطوفان الذين كذبوا نوح، فانظر أيها الرسول محمد كيف أنجينا المؤمنين، وأهلكنا المكذبين المنذرين الذين أنذرهم رسولهم بالعذاب قبل وقوعه، فلم يرتدعوا، وأصرروا على تكذبيبه.

وهذه هي العاقبة الوخيمة لكل المصيرين على تكذيب الأنبياء، وهذه هي العاقبة الحميدة للمؤمنين المصدقين بالله رباً، وبالإسلام ديناً وشرعاً ومنهاجاً.

قال تعالى: (ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ (74) ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (75) فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ (76) قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّحِرُونَ (77) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتِنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ) (يونس: 74-78)

تحدث الشيخ الزحيلي، رحمه الله تعالى، في هذه الآيات عن قصة موسى، عليه السلام، مع قومه بما يأتي: (الزحيلي، 1991م، 994_100)

1- الحوار بين موسى وفرعون: استمر تكذيب الأنبياء بين الأمم من بعد نوح عليه السلام، فمنع الله عنهم الخير والإيمان، ومن أمثلة ذلك قصة موسى مع فرعون وقومه، وفيها يشتم الحوار بين رسول الحق موسى، وبين زعيم الباطل فرعون، فموسى، عليه السلام، يعلو صوته بالدعوة إلى توحيد الله وإبطال ألوهية من دونه، وفرعون يدافع عن عرشه وسلطانه وادعاء ألوهيته، لتظل له الهيمنة.

ويكون الهدف من إيراد القصة في هذه الآيات ضرب المثل لحاضري محمد، صلى الله عليه وسلم، ومضمونه: كما حلَّ بهؤلاء يحلُّ بكم معشر قريش.

وهذه آيات تصوّر صولة الحقّ مع موسى، وهزيمة الباطل مع فرعون، لقد بعث الله من بعد نوح عليه السّلام رسلاً إلى أقوامهم، مثل هود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب، عليهم السّلام، بالمعجزات الدّالة على صدقهم، والبراهين الواضحة على صدق نبوتهم ورسالتهم، فلم تؤمن تلك الأقوام بما جاءتهم به رسلهم بسبب تكذيبهم بالوحي والرّسالة الإلهية، كما كذب المتقدّمون من قبلهم، ممّن كانوا على شاكلتهم في الكفر. (كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ)؛ أي: هذا فعلنا بهؤلاء الذين تجاوزوا طورهم، واجترحوا ما لا يجوز لهم، كما فعلنا بأمثالهم، ختمنا على قلوب المعاندين، فلم يعد الخير نافذاً إليها، ولا ينتظر إيمانهم حتّى يروا العذاب الأليم، وهذا إنذارٌ شديدٌ لمشركي العرب بأنّهم يستحقّون عذاباً مثل عذاب الأمم السّابقة إذا استمروا في تكذيبهم الرّسل، ومعارضة دعوة النّبي صلى الله عليه وسلم.

ثم بعث الله تعالى من بعد أولئك الرّسل موسى وأخاه هارون، عليهما السّلام، إلى فرعون ملك مصر وأشرف قومه وأتباعهم، بعثهما الله بالآيات البيّنات الدّالة على صدقهما كالعصا واليد، فاستكبر فرعون وأتباعه عن قبول الحقّ والانقياد له، وعن الإيمان بموسى وهارون، وكانوا قوماً مجرمين؛ أي: معتادي الإجرام، كفّاراً ذوي آثام عظام، ممعنين في الكفر والضّلال. فلما جاءهم موسى، عليه السّلام، بدليل الحقّ على الرّبوبيّة والألوهيّة لله تعالى، قالوا عناداً وعتوّاً: إنّ هذا لسحرٌ واضحٌ، أي: أنّ عصا موسى التي تتقلب حيّةً، ويده التي تضيء كالشمس هما في زعم فرعون وملئه سحر بيّن.

فأجابهم موسى منكرّاً عليهم وموتخاً لهم: أتقولون للحقّ الواضح البعيد عن السّحر الباطل: إنّهُ سحرٌ، والحال أنّكم تعرفون أنّ السّحر تخييلٌ وتمويهٌ، ولو كان هذا سحراً لانكشف واضمحلاً وزال، ولم يبطل سحر السّحرة، فهو إذن معجزةٌ إلهيةٌ، لا سحر وشعوذة ولا تمويه. فقال قوم فرعون لموسى قول صاحب الحجّة الضّعيفة بالتمسك بالتقليد للأباء والأجداد: أجبنا يا موسى لتصرفنا وتردنا عن دين آبائنا وأجدادنا؟ ولتكون لكما؛ أي: لك ولهارون أخيك الكبرياء في الأرض؛ أي: الرّياسة الدّينية والسّلطة الدّنيويّة.

2- الاحتكام للسّحرة في عهد فرعون: زعم فرعون، أو ظنّ أنّ ما جاء به موسى من معجزة العصا واليد مجرد سحر ظاهر، فدعا إلى الاحتكام للسّحرة ليبطل دعوة موسى، عليه السّلام، وليتقدّم موقفه أمام النّاس، وليحافظ على سلطانه. ولكنّ الله غالبٌ، والمعجزة الإلهية هي التي ستبطل إفك السّحرة، ويظهر الحقّ، وتعلو كلمة الله والإيمان به، ولو كره المجرمون ذلك، وهذا ما صورته الآيات القرآنيّة الآتية: قال تعالى: (وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتُنْتُونِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ (79) فَلَمَّا

جَاءَ السَّحَرَةُ قَالِ لَهُمْ مُوسَى اَلْقُوا مَا اَنْتُمْ مُلْقُونَ (80) فَلَمَّا اَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهٖ السِّحْرَ اِنَّ اِلٰهَكُمْ سَيُبْطِلُهُ اِنَّ اِلٰهَكُمْ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِيْنَ (81) وَيُحِقُّ اِلٰهُهُ الْحَقَّ بِكَلِمَتِهٖ وَاَنْتُمْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (سورة يونس: 79-82)

3- إيمان طائفة بموسى عليه السّلام: بالرّغم من الجهود المباركة المضنية من موسى، عليه السّلام، في دعوة النّاس في مصر إلى الإيمان برسالته وبوحدانيّة الله، لم يؤمن به إلا طائفة قليلة من بني إسرائيل، وهم فتیان وشباب أكثرهم أولو آباء كانوا تحت خوف من فرعون وأعوانه، وفي ذلك تسرية عن هموم نبيّنا عليه الصّلاة والسّلام، بسبب اغتنامه من إعراض قومه عنه وإصرارهم على الكفر، فله أسوة بسائر الأنبياء. وهذا ما أبانته الآيات القرآنيّة الآتية: (مَا ءَامَنَ لِمُوسَى اِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّنْ قَوْمِهٖ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ اَنْ يَفْتِنَهُمْ وَاِنْ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْاَرْضِ وَاِنَّهٗ لَمِنَ الْمُسْرِفِيْنَ (83) وَقَالَ مُوسَى يَقَوْمِ اِنْ كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاِلٰهِي فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوْا اِنْ كُنْتُمْ مُّسْلِمِيْنَ (84) فَقَالُوْا عَلَىٰ اِلٰهِنَا تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظّٰلِمِيْنَ 85 وَجِئْنَا بِرَحْمَتِكَ مِّنَ الْقَوْمِ الْكٰفِرِيْنَ (86) وَاَوْحَيْنَا اِلَىٰ مُوسَى وَاَخِيهِ اَنْ تَبۡوَا الْقَوْمِ كَمَا بۡمِصَّرَ بۡيُوۡتَا وَاجْعَلُوْا بۡيُوۡتَكُمْ قِبَلَةً وَاَقِيۡمُوا الصَّلٰوةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِيْنَ (سورة يونس: 83-87)

هذه هي حصيلة دعوة موسى، عليه السّلام، في أول أمره، فلم يصدّق بدعوته بادئ الأمر إلا قليل من قومه بني إسرائيل، مع ما جاء به من البيّنات الواضحة الدّالة على صدقه، وهم طائفة من الشّباب الخاضعين للحكم الفرعونيّ، على خوف من فرعون وجنوده أن يردّوهم إلى الكفر؛ لأنّ فرعون كان جبّاراً عنيداً، شديد البطش بخصومه، مستعلياً في أرض مصر، ومتجاوزاً الحدّ بادّعاء الرّبوبيّة واسترقاق أسباط الأنبياء. (الزحيلي، 1991م، 994_1000)

تقرير بداية هذه القصة ونهايتها بإيجاز يملأ النّفس رهبةً ورعباً، ويوقظ أحاسيس العبرة والعظة في المتأمّلين المفكرين المتعظّين، لأنّ نبيّ الله موسى الكليم يدعو إلى الحقّ، وتوحيد الله، وترك الظلم الغاشم للرّعية، وفرعون المتسلّط يتمسّك بعزّ السّلطة وكبرياء الحكم، ويترفّع عن النّزول لمستوى موسى وقومه، ولكنّ الله بالمرصاد ينصر رسله، وأنبيائه، وأتباعهم أهل الإيمان، ويهزم ويخذل أعداء الرّسل وقواعد الظلم وعروش الظلمة، وهذه هي سنّة الله في عبادته، يؤيّد الحقّ وأهله، ويمحق الباطل وأعوانه وجنده، وأكّد التّاريخ هذه السنّة؛ إذ يبقى أهل الصّلاح والاستقامة، وتطوى من التّاريخ صحف المفسدين الظّالمين المتكبرين. (الزحيلي، 1991م، 1393م)

قصة نوح عليه السّلام مع قومه:

قال تعالى: (وَلَقَدْ اَرْسَلْنَا نُوحًا اِلَىٰ قَوْمِهٖ اِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِيْنٌ (25) اَنْ لَا تَعْبُدُوْا اِلَّا اِلٰهًا اِنِّيْ اَخَافُ عَلَيۡكُمْ عَذَابَ يَوْمِ اَلِيْمٍ (26) فَقَالَ اَلْمَلَا الَّذِيْنَ كَفَرُوْا مِّنْ قَوْمِهٖ مَا نُرَبِّكَ اِلَّا بَشَرًا مِّثَلَنَا وَمَا نُرَبِّكَ اَتَّبِعَكَ اِلَّا الَّذِيْنَ هُمۡ اَرَادُوۡنَا بِاٰدِي الرَّايِّ وَمَا نَرَىٰ لَكَ عَلَيْنَا مِّنْ فِضْلٍ بَلْ نَظُنُّكَ كٰذِبِيۡنَ

(27) قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْتَةِ مِنْ رَبِّي وَعَآتِنِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنْزَلْنَاهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَرِهُونَ (28) وَيَقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلَقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرْنُكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (29) وَيَقَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (30) وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلِكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمَنْ الظَّالِمِينَ) (سورة هود: 25-31)

1- دعوته ونقاش قومه: أورد الله سبحانه وتعالى في قرآنه مجموعة من قصص الأنبياء السابقين للعظة والعبرة، وتمثيل الأوضاع لقريش وكفار العرب، والإعلام بأن محمداً، صلى الله عليه وسلم، ليس ببدع من الرسل، وإنما هو كغيره دعا إلى عبادة الله وحده، فعارضه قومه، فناقشهم وجادلهم.

كان قوم نوح عليه السلام يعبدون الأوثان ونحوها، فأرسل الله إليهم نوحاً يدعوهم إلى عبادة الله وتوحيده، فقال لهم: إني لكم منذرٌ واضحٌ، أنذركم عذاب الله وبأسه إن أنتم عبدتم غير الله، فأمنوا به وأطيعوا أمره، ولا تعبدوا غيره، ولا تشركوا به شيئاً، إني أخشى عليكم الوقوع في عذاب يوم شديد الألم، هو يوم القيامة.

فأوردوا عليه أربع شبهات:

الشبهة الأولى: بشرية الرسل: قال أشرف القوم وزعماءهم: ما أنت يا نوح إلا بشرٌ مثلنا، ولست بملك، فلا مزية لك علينا حتى نطيعك في أمرك.

الشبهة الثانية: أتباعك أرادل القوم، فلم يتبعك إلا الأخصاء أصحاب الحرف الخسيسة كالزراع والصناع، وهم الفقراء والضعفاء، في بادي الأمر وظاهره من دون تأمل ولا تفكير ولا تدبر في عواقب الأمور، ولو كنت صادقاً لاتبعت الأشراف والكبراء.

الشبهة الثالثة: لا فضل لك علينا: ما رأينا لكم علينا امتيازاً في فضيلة أو قوة أو علم أو عقل أو جاه أو رأي، يحملنا على اتباعك (الزحيلي، 1991م، 135)

الشبهة الرابعة: نتهمك بالكذب: يترجح لدينا كذبكم في ادعائكم الصلاح والسعادة في الآخرة، ويلاحظ أنهم خاطبوه بصيغة الجمع لإشراك أتباعه معه في التهم.

أجابهم الله عن شبهاتهم فيما حكاه عن نوح، عليه السلام، قائلاً: أخبروني يا قومي عما أفعل إن كنت على يقينٍ وحجةٍ ظاهرةٍ فيما جئتكم به من ربِّي، وآتاني رحمة من عنده وهي النبوة والوحي، فخفيت عليكم، فلم تهتدوا بها، ولا عرفتم قدرها، أنكرهكم على قبولها، وأنتم لها كارهون، معرضون عنها؟ ويا قومي، لا أطلب منكم مالاً على نصحي لكم، أي: أجراً أخذه منكم، وإنما

أجري على الله عزَّ وجلَّ. وليس من شأني طرد المؤمنين برسالتي، وتحتيتهم من مجلسي، وهذا إعلان المساواة في الكرامة بين النَّاس من غير امتيازٍ للأغنياء، إنَّ هؤلاء الأتباع سيلقون ربَّهم، ويحاسبهم على أعمالهم، كما يحاسبكم، ويعاقب من طردهم، وأراكم قوماً جهلاً في مطالبكم بطردهم من مجلسي، فإنَّ المفاضلة بين النَّاس إنَّما هي بالعمل الطَّيِّب الصَّالح، لا بالثَّروة والجاه كما تزعمون.

ويا قومي مَنْ ينصرني من عذاب الله إن طردتهم، فذلك ظلمٌ عظيمٌ، أفلا تتعظون وتتفكرون فيما تقولون؟!... وإني لا أقول لكم: إنِّي أملك خزائن رزق الله، وأنصرف فيها، ولا أعلم من الغيب إلاَّ ما أطلعني الله عليه، ولست أحد الملائكة، ولا أستطيع القول لهؤلاء الذين تحتقرونهم: لن ينالهم خيرٌ، وليس لهم ثواب على أعمالهم، الله أعلم بما في صدورهم وبواطنهم من القصد الحسن والنَّية الطَّيِّبة، فإن تطابق باطنهم مع ظاهرهم، كان لهم الحسنى، وإن حكمت على سرائرهم بغير دليلٍ ظاهرٍ، كنت ظالماً قاتلاً ما لا أعلم به. (الزحيلي، 1991م، 135_146)

الخلاصة:

إنَّ نوح قصر مهمَّته على تبليغ الوحي بالنبوة، وأخبرهم عن تواضعه أمام الله عزَّ وجلَّ، والكلام عن قوم نوح تصويرٌ دائمٌ لأحوالٍ مشابهةٍ للكفرة في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، فما صدر من قوم نوح متجسِّدٌ في أحداث التاريخ، وعقليَّة الأقوم المتلاحقة، فليست القضية إذاً مجرد تاريخ للعبرة، وإنَّما هي صورةٌ متكرِّرةٌ معادَّةٌ لدى بعض النَّاس في أفكارهم وسلوكهم، ما دام خطاب القرآن واحداً.

فائدة قصة نوح، عليه السلام:

إنَّ في إيراد قصص الأنبياء السابقين فوائدٌ جليَّة وحكماً تشريعيَّةً ودينيَّةً عظيمةً، ففيها ربطُ الماضي بخاتمة الرِّسالات السَّماويَّة، ودفعاً قويَّةً دائمةً إلى الأمام بالإفادة من تاريخ الأنبياء، ومعرفةً مدى مؤازرة الله لهم لأنَّهم دعاة الحقِّ، والعلم بمواطن العبرة والعظة البالغة من القصة القرآنيَّة التي هي منار الطَّريق، وبيان السَّبيل لكلِّ مَنْ أراد الخير للأُمَّة والمجتمع، والإنسان ذاته، وقصة نوح عليه السَّلَام نبراس القصص القرآنيَّة، ومنطلق التَّوجُّهات والتَّحرُّكات الدَّعويَّة كلَّها لعبادة الله وتوحيده، وإعلان هزيمة الشُّرك والوثنيَّة، وإنهاء تاريخ العتاة والطُّغاة وعبدة الأوثان باستئصالهم وتطهير ساحة الأرض من أرجاسهم، لذا أورد القرآن آياتٍ بليغةً تصوِّر مواطن العظة والعبرة من قصة نوح عليه السَّلَام.

(الزحيلي، 1991م، 135_146)

قصة يوسف، عليه السلام، والعبرة منها:

تضمّنت قصة يوسف، عليه السّلام، مجموعةً من المبادئ الاعتقاديّة والأخلاقيّة والدّينيّة؛ إذ كوّنت همزة وصل وجسور التقاء بين رسالة يوسف ورسالة النّبي محمّد، صلّى الله عليه وسلّم، أساسها شكر النّعمة لخالق الأرض والسّماء، ومبناها الإيمان بالغيب، وفيها براهين لإثبات وجود الله تعالى وتوحيده تقوم على أساس التّفكّر والتأمّل في آيات الله الكونيّة، وتتضمّن وصف أكثر النّاس بعدم الإيمان، وتهديدهم بإتيان العذاب أو مجيء القيامة، ممّا يجعل دعوة خاتم الأنبياء تقوم على هذه الأسس القديمة القويمة، وعلى الإقناع والعقل والتبصّر في الأمور، وإثبات توحيد الله، ورفض الشّرك والوثنيّة. (الزحيلي، 1991م، 1138)

قصة أهل الكهف:

تتعدّد مظاهر قدرة الله تعالى في الكون والحياة والإنسان، فمنها المعتاد المألوف المحسوس من خلق الأشياء وولادة الإنسان، وإماتته، ومنها النّوم المتكرّر الذي هو الموتة الصّغرى، ومنها حالات غير مألوفة، مثل السّبات الذي يستمرّ عشرات أو مئات السّنوات، كحالة أصحاب الكهف، لإظهار قدرة الله وسلطانه التّام على الإنسان وغيره. وكانت سورة الكهف كلّها تذكيراً باليوم الآخر والمعاد والحساب وبقدره الله على البعث، وهذه هي قصة أصحاب الكهف، مطلعها في بيان أسباب القصة.

قال الله تعالى: (أَمْ حَسِبْتَ أَنْ أَصْحَبَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ ءَايَاتِنَا عَجَبًا (9) إِذْ أَوْىءَ الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا ءَاتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (10) فَضَرَبْنَا عَلَى ءِذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (11) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِئُوا أَمَدًا (12) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (13) وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ ءِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (14) هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءِ إِلَهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطٰنٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا) سورة الكهف: 9-15)

المهمّ هو الاعتبار أو الاتّعاظ بالقصة، والإيمان بقدرة الله على البعث والإعادة. ثمّ نبّه الله تعالى رسوله إلى أمرٍ آخر: فلا تجادل أيّها النّبيّ أهل الكتاب في شأن أصحاب الكهف إلّا جدلاً ظاهراً غير متعمّق فيه، وهو الاقتصار على ما حكاه القرآن، أو أن تقصّ عليهم ما أوحى الله إليك وحسب، من دون زيادة، من غير تجهيل لهم، ولا تعنيف في الرّدّ عليهم، ولا تسأل أحداً عن قصّتهم سؤال متعنت، لأنّ ذلك خلاف ما وصيت به من المداراة والمجاملة، ولا سؤال مسترشد، لأنّ الله قد أرشدك، بأن أوحى إليك قصّتهم.

ثمّ لفت الله تعالى نظر نبيّه إلى سبب القصة، وترك التّفويض إلى مشيئة الله، فلا تقولن أيّها الرّسول لشيءٍ عزمتم على فعله في المستقبل: إنّي سأفعل ذلك غداً، إلّا بالافتتران بمشيئة الله

عزَّ وجلَّ، فتقول: (إن شاء الله)، واذكر مشيئة ربِّك إذا نسيت، وقل: إن شاء الله، أي: إذا نسيت تعليق الأمر بمشيئة الله، ثم تنبَّهت، فتدارك ذلك بذكر الله، طال الوقت أو قصر، ولو بعد سنة ما لم تحنث في اليمين (الزحيلي، 1991م، 1313). قال تعالى: (وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكِ غَدًا (23) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادُّرَّكَ رَبُّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّي لِأَقْرَبٍ مِنْ هَذَا رَشْدًا) (سورة الكهف: 23-24)

قصة صاحب الجنَّتين

في القرآن الكريم أمثلة واقعية حسيَّة ذات تأثير بالغ، وعبرة عظيمة، قصد بإيرادها تصوير المواقف، وتثبيت الإيمان أو غرسه، واستئصال الكفر وآثاره، والردَّ على الطائفة المتحيِّرة من كفَّار مكَّة الذين أرادوا من النبي، صلَّى الله عليه وسلَّم، أن يطرد فقراء المؤمنين الذين يدعون ربَّهم بالغداة والعشي على الدوام، والتَّوْبَى بأهل الإيمان المقرَّين بالربوبية أمثال بلال وعمار وصهيب وأقرانهم ﷺ، ومن هذه الأمثلة: قصة رجلٍ جاحدٍ كان له جنَّتان؛ أي: بستانان، فافتتن بجمالهما، وأنكر البعث والآخرة، قال الله تعالى واصفاً حال هذا الرَّجل:

قال تعالى: (وَأَصْرَبُ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا (32) كَلْتَا الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أَكْلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلْفَهُمَا نَهْرًا (33) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا (34) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (35) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا) (سورة الكهف: 32-36).

والمقصود بالمثل طائفتان، إذ الرجل الكافر صاحب الجنَّتين هو بإزاء متجبري قريش أو بني تميم، والرجل المؤمن المقر بالربوبية هو بإزاء بلال وعمار وصهيب وأقرانهم ﷺ. (الزحيلي، 1991م، 1423).

قصة هود، عليه السلام:

لقد أورد القرآن الكريم أخبار مجموعة من قصص الأنبياء للعبرة والعظة، على النحو الجماعيِّ والفردِي، ومن هذه القصص قصة هود عليه السلام مع قومه عاد، وعاد قبيلة عربية من إرم، كانوا يسكنون الأحقاف: وإد باليمن فيه منازلهم بين عمان ومهرة، والغاية من هذه القصة تذكير أهل مكَّة وأمثالهم، بقوم هود وما حلَّ بهم، وقد كانوا أشدَّ منهم قوة وأكثر جمعاً، وقد أبادهم الله بالريح الصرصر العاتية، فهل من عاقل متعظ؟

قال تعالى: (وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النَّذْرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ءِ إِلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) (سورة الأحقاف: 21) (الزحيلي، 1991م، 1456)

قصة أصحاب الفيل:

حرمت الله تعالى عظمةً مقدّسةً، ومنها بيت الله الحرام - الكعبة المشرفة، فمن حاول المساس بتلك الحرمات، رده الله وصدّه عنها، وحمى حرّماته بما يشاء، وسورة الفيل المكيّة نزلت تذكيراً لقريش بنعمته العظيمة، حين أراد أبرهة ملك الحبشة هدم الكعبة، ووجّه جيشه لهذه المهمة، معهم الفيلة الكثيرة، بقصد توجيه حجّ العرب إلى بيت بناه أبرهة في اليمن، ولكن قدرة الله القهار فوق كلّ تقديرٍ واعتبار، فحينما وجّه أبرهه جيشه لهدم الكعبة، برك فيله بذي المغمس (موضع قريب من مكّة في طريق الطائف)، ولم يمش نحو مكّة، على الرّغم من أنّهم شقّوا جلده بالحديد، وكان إذا وجهوه إلى غير مكّة هروا، وبينما هم كذلك، بعث الله تعالى عليهم طيراً جماعات سوداً أو خضراً من البحر، عند كلّ طيرٍ ثلاثة أحجارٍ، في منقاره ورجليه، كلّ حجرٍ فوق العدسة، ودون الحمصة، فرمتهم بتلك الحجارة، وكان الحجر منها يقتل المرمي، وتتهراً لحومهم جرباً وأسقماً، وانصرف أبرهة بمن بقي معه يريد اليمن، فماتوا في طريقهم متفرّقين في كلّ مرحلة، وتقطع أبرهة أنملة أنملة حتّى مات، وحمى الله بيته، فنزلت هذه السورة منبّهة على الاعتبار بهذه القصة، ليعلم الكلُّ أنّ الأمر كلّهُ لله تعالى، ويستسلموا للإله الذي ظهرت في ذلك قدرته، حين لم تغن الأصنام شيئاً، فأصحاب الفيل: هم أبرهة الملك ورجاله.

فجاء الخطاب الربّاني: ألم تعلم علم اليقين، وكأنك شاهدت الواقعة، بما صنع ربك العظيم القدير بأصحاب الفيل، حيث دمرهم الله، وحمى بيته الحرام، أفلا يجدر بقومك أن يؤمنوا بالله؟! وقد شاهد بعضهم الواقعة بنفسه. (الزحيلي، 1991م، 2934_2935)

المبحث الثاني: الاجتهاد التفسيري بالأمثال

المطلب الأول: الأمثال في اللغة

مِثْلٌ: كلمة تسوية. يقال: هذا مِثْلُهُ ومِثْلُهُ كما يقال شَبَّهُهُ وشَبَّهُهُ بمعنى. والعرب تقول: هو مُثِيلٌ هذا... والمِثْلُ: ما يُضرب به من الأمثال. ومثل الشيء أيضاً: صفته. والمِثَالُ معروفٌ، والجمع أمثلةٌ ومُثَلٌّ. ومثَّلْتُ له كذا تمثيلاً، إذا صوّرت له مثاله بالكتابة وغيرها. والتِمثالُ: الصورة، والجمع التماثيل. ومثل بين يديه مُثولاً، أي انتصب قائماً. (الجوهري، 1978م، 1816)

والمِثْلُ: الشَّبه. يـُـقَالُ: مِثْلٌ وَمِثْلٌ وشَبَّهُ بِمَعْنَى وَاحِدٍ؛ قَالَ ابْنُ جَنِّي: وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: (فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ مِثْلٍ مَا أَنْتُمْ تَتَطَفَّؤْنَ) جَعَلَ مِثْلًا وَمَا اسْمًا وَاحِدًا فَبَنَى الْأَوَّلَ عَلَى الْفَتْحِ، وَهُمَا جَمِيعًا عِنْدَهُمْ فِي مَوْضِعٍ رَفَعَ لِكَوْنِهِمَا صِفَةً لِحَقِّ... وَالْمِثَالُ: الْمَقْدَارُ وَهُوَ مِنْ الشَّبْهِ، وَالْمِثْلُ: مَا جُعِلَ مِثَالًا أَيْ مِقْدَارًا لِعَيْزِهِ يُخَذَى عَلَيْهِ، وَالْجَمْعُ الْمِثْلُ وَثَلَاثَةُ أَمْثَلَةٍ، وَمِنْهُ أَمْثَلَةُ الْأَفْعَالِ وَالْأَسْمَاءِ فِي بَابِ التَّضْرِيْفِ. وَالْمِثَالُ [الْقَالِبُ] الَّذِي يَقْدَرُ عَلَى مِثْلِهِ. أَبُو

حَنِيفَةً: المِثَالُ قَالِبٍ [قَالِب] يُدْخِلُ عَيْنَ النَّصْلِ فِي حَزَقٍ فِي وَسْطِهِ ثُمَّ يُطْرَقُ غِرَارُهُ حَتَّى يَنْبَسِطَا، وَالْجَمْعُ أَمْثَلَةٌ. وَتَمَائِلُ الْعَلِيلِ: قَارِبُ الْبُرْءِ فَصَارَ أَشْبَهَ بِالصَّحِيحِ مِنَ الْعَلِيلِ الْمَنْهُوكِ، وَقِيلَ: إِنْ قَوْلُهُمْ تَمَائِلُ الْمَرِيضِ مِنَ الْمَثُولِ وَالانْتِصَابِ كَأَنَّهُ هَمٌّ بِالنُّهُوضِ وَالانْتِصَابِ... وَالْأَمْثَلُ: الْأَفْضَلُ، وَهُوَ مِنْ أَمَاتِلِهِمْ وَدَوِي مَاتِلَتِهِمْ". (ابن منظور، 1414هـ، 611_613)

المطلب الثاني: تعريف الأمثال في القرآن الكريم

الضابط في تعريف المثل في القرآن الكريم -على وفق ما ذهب إليه مناع القطان - أنه: إبراز المعنى في صورة رائعة موجزة، لها وقعها في النفس سواء أكانت تشبيهاً أو قولاً مرسلًا (القطان، 1416م، 259).

وجاء في كتاب (الأمثال في القرآن): "أمثال القرآن لا يعقلها إلا العالمون، وأنها تشبيه شيء بشيء، وتقريب المعقول من المحسوس، أو أحد المحسوسين من الآخر، واعتبار أحدهما بالآخر" وأغلب الأمثال يأتي على طريقة التشبيه الص (القطان، 1416هـ، 259) نحو قوله تعالى: (إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ) (سورة يونس: 24)

ومنها ما يجيء على طريقة التشبيه الضمني، كقوله تعالى: (وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ) (سورة الحجرات: 12)، ولم تشمل هذه الآية على تشبيه صريح (القطان، 1416هـ، 256)

ومنها ما لم يشتمل على تشبيه ولا استعارة، كقوله تعالى: (يَأْيُهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ) (سورة الحج: 73).

فقوله تعالى: (ضرب مثل)، قد سمّاه الله مثلاً، وليس فيه استعارة ولا تشبيه (القطان، 1416هـ، 259).

وسياتي ذكر هذه التّقسيمات في أقسام الأمثال.

المطلب الثالث: أقسام الأمثال القرآنية:

تنقسم الأمثال في القرآن الكريم إلى قسمين:

1- الأمثال الظاهرة المصرحة:

وهي التي ورد فيها ذكر لفظ المثل بصفة صريحة (الزركشي، 1991م، 486) أو ما يدل على التشبيه (القطان، 1413هـ، 260)، ومن أمثلتها:

قوله تعالى: (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمٍ لَا يَبْصُرُونَ (17) صُمُّ بَعْضُكُمْ عَمِّي فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (18) أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ

من ثوابٍ ولا فائدة نافعة، لأنَّ الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه
(الميداني، 1992م، 45).

ب- التمثيل المركَّب: وهو أن ينتزع وجه الشَّبه من أمور مجموع بعضها إلى بعض
(الزركشي، 1991م، 422)

أي: إنَّ وجه الشَّبه فيه لا يكون مأخوذاً من مفرد بعينه، بل يكون مأخوذاً منه ومن غيره أو من
الصُّورة العامَّة. (الميداني، 1992م، 45)

ومن أمثلة ذلك:

قوله تعالى: (مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ
سُنْبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ) (سورة البقرة: 261)

في هذه الآية تمثيلُ الإنفاق في سبيل الله بصدق وإخلاص، فالحبَّة التي تزرع في أرض طيبة
مباركة تنبت سبع سنابل، في كلِّ سنبلَةٍ مئةُ حبَّة، فلوحة التَّمثيل هنا تشتمل على حبِّ وزرع
ونباتٍ خصيب، وسنابل سبع لكلِّ حبَّة، ومئة حبَّة في كلِّ سنبلَةٍ، فعند تحليل العناصر في هذا
المثل يمكننا أن نرجعه إلى أمثال بسيطة، فالبذل يشبه عملية الزرع، وتنمية الله له تشبه النبت
الجيد، ومضاعفة الأجر تشبه تكاثر السنابل من الحبَّة الواحدة، وتكاثر الحبِّ في كلِّ سنبلَةٍ
(الميداني، 1992م، 45).

وقوله تعالى: (إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا
يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُونَ عَلَيْهَا أَتْلَاهَا
أَمْرًا نَبِيًّا أَوْ نُهَازًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَعْنِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)
(سورة يونس: 24)

ففي هذا المثل عشر جمل، وقع التَّركيب من مجموعها، بحيث لو سقط منها شيء اختلَّ
التَّشبيه؛ إذ المقصود تشبيه حال الدنيا في سرعة انقضائها، وانقراض نعيمها، واغترار النَّاس
بجالٍ ماءٍ نزل من السَّماء، وأنبت أنواع العشب وزين بزخرفها وجه الأرض كالعروس إذا أخذت
الثياب الفاخرة، حتَّى إذا طمع أهلها فيها وظنُّوا أنَّها مُسلمة من الجوائح، أتاها بأس الله فجأة
فكأنَّما لم تكن بالأمس. (السيوطي، 2005م، 357)

2- الأمثال الكامنة:

وهي التي لم يصرَّح فيها بلفظ التمثيل، ولكنها تدل على معانٍ رائعة في إيجاز: يكون لها وقعها
إذا نقلت إلى ما يشبهها (الزركشي، 1992م، 421)، ويمثلون لهذا النوع بأمثلة منها:

1- ما في معنى قولهم: "خير الأمور الوسط":

قوله تعالى: {لَا فَارِضٌ وَلَا بَكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ} (سورة البقرة: 68). وقوله تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا} (سورة الفرقان: 67)

2- ما في معنى قولهم: "ليس الخبر كالمعاينة":

قوله تعالى في إبراهيم عليه السلام: {قَالَ أَوْلَمْ تُؤْمِنِ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنَّ لِيْطْمَئِنَّ قَلْبِي} سورة البقرة: (260)

3- ما في معنى قولهم: "كما تدين تُدان":

قوله تعالى: {مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ} (سورة النساء: 123)

المطلب الرابع: استنباطات الشيخ الزحيلي، رحمه الله، في آيات الأمثال:

قال تعالى: (وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رَزَقُوا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَبِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (25) ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي ۚ أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةٌ فَمَّا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (سورة البقرة: 26-27)

حرص القرآن الكريم على توضيح المعاني الدينية وأصول الإيمان بإيراد الأمثال والتشبيهات بالأمور المادية المحسوسة، لترسيخ المعاني في الأذهان، فإن كان المضروب له المثل عظيماً كالحق والإسلام، ضرب مثله بالنور والضياء، وإن كان ضعيفاً حقيراً كالأصنام، ضرب مثله بما يشبهه كالذباب والبعوض والعنكبوت، فيكون المثل لكشف المعنى وتوضيحه بما هو معروفٌ مشاهدٌ لا سبيل إلى إنكاره.

فأما المؤمنون الذين في قلوبهم نور، فيهديهم الله إلى التصديق بأن هذا كلام الله، ويكون جزاؤهم جنان الخلد، والاستمتاع بنعيمها، ففيها ما تشتهيهِ الأنفس وتلذُّ به الأعين. (الزحيلي، 1991م، 176)

وأما موقف الكفار الجاحدين من أمثال القرآن، فهم في حيرةٍ من أمرهم، فيتعجبون ويقولون: ماذا يريد الله بهذا المثل؟ ككلِّ متخبطٍ لا يدري ماذا يفعل. قال ابن عباس: لما ضرب الله سبحانه هذين المثليين للمنافقين، كما في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾ قالوا: الله أجلُّ وأعلى من أن يضرب الأمثال، فأنزل الله هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا﴾، وقال الحسن وقتادة: لما ذكر الله الذباب والعنكبوت في كتابه، وضرب للمشركين المثل، ضحكت اليهود، وقالوا: ما يشبه هذا كلام الله، فأنزل الله هذه الآية.

فالتَّمثِيلُ بالبعوضة ونحوها ضلَّ به كثيرٌ من النَّاسِ، واهتدى به كثيرٌ من النَّاسِ، ولا يضلُّ به إلا الخارجون عن طاعة الله، الذين ينقضون ما عاهدوا الله عليه من الإيمان بمحمدٍ والتَّصديق

به، وهم هؤلاء الصّالّين الإفساد بين الناس، وإثارة الفتن والشكوك، وقلب الحقائق، وتصديق جبهة الأمة الداخليّة، والتآمر مع الأعداء؛ إذ لا مبدأ عندهم يردعهم عن موالاته الأعداء، فحسروا الدّنيا بافتضاحهم والآخرة بغضب الله عليهم، وذلك هو الخسران المبين (الزحيلي، 1991م، 18-19).

تتكرّر أمثال القرآن الكريم للعبرة والعظة، والتأمل والزجر، وتذكّر الأمثال إمّا بحال الأمم والجماعات، وإمّا بحال بعض الأفراد، وفي قمة هؤلاء رجل من بني إسرائيل اسمه بلعام بن باعوراء أو عابر، دعا على موسى مقابل هدية من اليهود، فصار مثلاً شهيراً في التاريخ بسبب ضلاله وتكذيبه، حكى القرآن الكريم قصته في قوله تعالى:

قال تعالى: (وَأْتَلَّ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ 175 وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلُكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمَلَتْ عَلَيْهِ يَلْهَثَ أَوْ تَتْرَكُهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ 176 سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ) سورة الأعراف: (177-175)

أراد الله في قرآنه تربية الأجيال والأشخاص تربية إيمانية صلبة، لا تتأثر بإغراءات الحياة والمادة والمال، وإنما تظل وفيه للمبدأ، مخلصه للعقيدة، دون أن تضعف أو تتردد أو تنحرف أمام شهوات الدنيا ومفاتها، ومن هؤلاء بلعام بن باعوراء أو عابر، كان من علماء بني إسرائيل أو أنه كان من جملة الجبارين الذين غزاهم موسى عليه السلام، فلما قرب منهم موسى لجؤوا إلى بلعام، وكان صالحاً مستجاب الدعوة، فدعا على موسى مقابل هدية مالية، فاستجيب له، ووقع موسى وقومه في صحراء التيه بدعائه (الزحيلي، 1991م، 750).

قال تعالى: (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ 24 تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ 25 وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ 26 يُثْبِتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ) (سورة إبراهيم: 24-27)

الكلمة أمانة، والمقصد الأسمى من التشريع الإلهي والوحي الرباني: هو تهذيب الإنسان وتربيته، بالقول والفعل، فقله أو كلامه ينبغي أن يكون طيباً ليناً مجاهراً بالحق، أمراً بالمعروف ونهاياً عن المنكر، وفعله يلزم أن يكون صالحاً حسناً، يتفق مع أوامر الله تعالى، ويكون للكلمة الطيبة تأثير السحر في النفس، ومفعولها دائم شامل، يصدر عنها كل فضيلة وخير وإحسان، وأمّا

الكلمة الخبيثة فلها مردود عكسي وتأثير سلبي، تضر ولا تفيد، وهي كالوباء، ولا خير فيها ولا بقاء، والله سبحانه يثبت أهل الحق، ويضل أصحاب الظلم والجور.

ومعنى الآيات:

ألم تعلم أيها المخاطب العاقل كيف ضرب الله لك مثل الكلمة الطيبة ومثل الكلمة الخبيثة، إنَّ الكلمة الطيبة وهي كلمة الحق والتوحيد والإسلام ودعوة القرآن كالشجرة الطيبة، وهي النخلة ذات الأوصاف الأربعة:

- فهي شجرة طيبة الرائحة والطعم والمذاق، جميلة المنظر والشكل. وطيبة المنفعة، يستأد بها الآكل، وينتفع بها الإنسان نفعاً شاملاً.

- وأصلها ثابت، أي راسخ باق متمكن في الأرض، لا ينقلع، يدوم صيفاً وشتاءً.

- وفرعها في السماء، أي شامخة مرتفعة في الجوّ الأعلى، بعيدة عن العفونات الأرضية.

- تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، أي تثمر في أدوار متعاقبة، كل وقت ووقته الله لإثمارها، بإرادة ربها وإيجاده، وذلك في كل عام مرة.

قال ابن عباس، رضي الله عنهما، وغيره: الكلمة الطيبة: هي (لا إله إلا الله)، مثلها الله بالشجرة الطيبة، وهي النخلة في قول أكثر المتأولين، فكأن هذه الكلمة أصلها ثابت في قلوب المؤمنين، وفضلها وما يصدر عنها من الأفعال الركيّة، وما يتحصّل منها من عفو الله ورحمته، هو فرعها يصعد في السماء من قبل العبد، ويتنزل منها من قبل الله تبارك وتعالى، وهي نافعة في كل وقت.

وهكذا يضرب الله الأمثال للناس، فإن في ضرب الأمثال زيادة إفهام وتذكير، وعظة، وتصوير للمعاني، وما أرسخ تشبيه المعنويات والمعقولات بالحسيّات المشاهدة.

وبعضهم جعل المؤمن هو مثل الشجرة الطيبة، فهو في جميع أيامه في عمل، وإذا كانت الشجرة لا تخل بالإتيان بالأكل أو الثمر في الأوقات المعلومة، فكذلك هو المؤمن لا يخل بما يسر له من الأعمال الصالحة. وهذا مقبول فأصحاب الكلمة الطيبة هم المؤمنون (الزحيلي، 1991م، 1193_1196)

ومثل الكلمة الخبيثة، أي: صفتها، وهي كلمة الكفر وما قاربها من الكلام السوقي في الظلم ونحوه، كشجرة خبيثة وهي شجرة الحنظل أو الثوم، وتتصف بأوصاف ثلاثة هي:

- أنها خبيثة الطعم، ضارة الرائحة.

- وأنها اقتلعت واستوصلت، وليس لها أصل ثابت ولا عرق دائم.

- وليس لها استقرار ولا دوام، وتقلبها الريح بعد اقتلاعها.

وأصحاب الكلمة الخبيثة هم الكافرون والعصاة، فالكافر لا يستقرُّ بيده شيء، ولا يغني عنه كفره، كهذه الشجرة التي يُظنُّ من بعد أنها شيءٌ نافعٌ، وهي خبيثة الثمرة، غير باقية. وأصحاب الكلمة الطيبة: هم الفائزون بمرادهم في الدنيا، والله تعالى يثبت أهل الإيمان بكلمة الإخلاص والنَّجاة من النار: (لا إله إلا الله) والإقرار بالنبوة، يثبتهم الله في الدنيا، أي مدة حياة الإنسان، ووقت السؤال في القبر بأن يخلق الله للإنسان في قبره إدراكاتٍ وتحصيلًا. وفي يوم القيامة يثبتهم عند العرض على الله. والتثبيت بحمايتهم من التَّعرض للفتنة في دينهم في دار الدنيا، وبالتصريح بصحة المعتقد دون تلثم ولا تحيرٍ من أهوال الحشر يوم القيامة. وكلُّ هذا جائزٌ في قدرة الله تعالى.

ويضلُّ الله الظالمين؛ أي: يمنع الله الكافرين عن الفوز بثوابه، أو يتركهم وضلالهم لعدم استعدادهم للإيمان، وتجاوبهم مع الأهواء والشهوات.

ولله المشيئة المطلقة في الفريقين، يفعل الله ما يشاء، من هداية بعض وإضلال بعض، عملاً بماله من حقِّ الملك والسُّلطان. (الزحيلي، 1991م، 1193_1196)

والخلاصة: إنَّ الآيات دعوةً قويَّةً صريحةً للإيمان، وتحذيرٌ ورفضٌ للكفر والضلال.

إنَّ رسالة القرآن رسالةً تصحيحٍ وتقويمٍ، ونصحٍ وإرشادٍ، وتحذيرٍ وترهيبٍ، فترى آيات القرآن تحمل حملةً عنيفةً شديدةً على الكفر وأهله، وما يصدر عنهم من أفعال ضارةٍ بأنفسهم وأمَّتهم، وما يستحقُّونه من عذابٍ وعقابٍ في النَّار، وفي الواجهة الأخرى تمدح الإيمان والمؤمنين، وتزكِّي أعمالهم الصالحة، وتدعوهم دائماً إلى فعل الخير الفردي والجماعي، وتعددهم بجنان الخلد والعاقبة الطيبة. (الزحيلي، 1991م، 1193_1196).

الخاتمة

في ختام هذا البحث توصل الباحث إلى جملة من النتائج، أبرزها:

1- شأنُ القصَّة القرآنيَّة ليست مجردَ سردٍ تاريخيٍّ، وإنما هي وسيلةٌ تربويَّةٌ هادفةٌ تُعنى بالهداية وبناء العقيدة وتقويم السلوك.

2- أنَّ للأمثال القرآنيَّة دورًا بيانيًّا عظيمًا في تقريب المعاني العقليَّة إلى الأذهان عبر صورٍ حسيَّةٍ مؤثِّرة.

3- أنَّ تنوع أساليب القصص والأمثال في القرآن يعكس إعجازًا بلاغيًّا يُراعي اختلاف المقامات والأحوال ويُحقِّق أعلى درجات التأثير.

- 4- أن تكرار القصص في القرآن ليس تكراراً لفظياً، بل هو تنويع أسلوبٍ يُثري المعنى ويُعمق العبرة.
- 5- أن منهج الشيخ الزحيلي في التفسير يُبرزُ توظيفاً واعياً للقصص والأمثال في استنباط الهدايات العقديّة والتربويّة.
- 6- أن الاجتهاد التفسيري القائم على القصص والأمثال يُعدُّ من أهمّ المسالك لفهم مقاصد القرآن وربطها بواقع الإنسان والمجتمع.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

1. السيوطي، جلال الدين، (2005م)، الإتيان في علوم القرآن، دار الفكر، بيروت، لبنان، 2005م.
2. زايد، فهد، (2007م)، أسرار القصة القرآنيّة، ط، عمّان، دار ياف.
3. أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق، سوريا، ط 2 بيروت، لبنان، 1992م.
4. ابن القيم، محمد بن ابي بكر الجوزية، (1980م)، الأمثال في القرآن الكريم، الجوزية، نمر الخطيب ط2، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.
5. الزركشي، بدر الدين، (1991م)، البرهان في علوم القرآن، دار المعرفة، د.ط، بيروت.
6. قطب، سيد، (2004م)، التصوير الفني في القرآن، ط17 القاهرة : دار الشروق.
7. الزحيلي، وهبه، (1991م)، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، ط1، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان.
8. نوفل، أحمد، (1989م)، سورة يوسف، دراسة تحليلية، ط1، دار الفرقان، الأردن.
9. الجوهرى، إسماعيل بن حماد، (1987م)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، دار العلم للملايين ط4، بيروت.
10. حسن، محمد كامل، (1970م)، القرآن والقصة الحديثة ، ط1، دار البحوث العلميّة، بيروت.
11. الزحيلي وهبة، (1998م)، القصة القرآنيّة هداية وبيان، ط3، دار الخير.
12. ا الدقور، محمد، (2007م)، القصص القرآني أهدافه وخصائصه ومنهجه، ط1، سليمان، دار، الفضيلة، عمان .

13. عباس، فضل حسن، (1978م)، القصص القرآني إبحاؤه ونفحاته، ط1 عمان :دار الفرقان
14. الخالدي صلاح عبد الفتاح، (ب،ت)، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، ط2. الدار الشامية، بيروت.
15. ابن منظور، محمد بن مكرم، (1414هـ)، لسان العرب، د.ط، دار صادر - بيروت.
16. القطان، مناع، (1416هـ)، مباحث في علوم القرآن، ط2 الرياض، مكتبة المعارف .
17. عبد الفتاح، عفيف، (ب،ت)، مع الأنبياء في القرآن طيارة، دط، بيروت، دار العلم للملايين.
18. الزيات، إبراهيم مصطفى، (ب،ت)، المعجم الوسيط، دط، دار الدعوة.
19. ابن فارس، أحمد بن زكريا، (1972م)، معجم مقاييس اللغة، مصر، ط2 .
20. الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، (1412هـ)، المفردات في غريب القرآن ، ط1، دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت.
21. أحمد، نوفل، (2007م)، مناهج البحث والتأليف في القصص القرآني، ط ، عمان، دار الفضيلة.
22. العامود، وليد محمد حسن، (ب،ت)، منهج القرآن الكريم في عرض قضايا العقيدة.

Sources and References

The Holy Qur'an.

1. Al-Suyuti, Jalal al-Din (2005). *Al-Itqan fi 'Ulum al-Qur'an* (Mastery in the علوم of the Qur'an). Dar Al-Fikr, Beirut, Lebanon.
2. Zayed, Fahd (2007). *Asrar al-Qissa al-Qur'aniyya* (Secrets of the Qur'anic Story). Amman: Dar Yaf.
3. *Parables of the Qur'an and Examples of Its Refined Literature*, Abdul Rahman Hasan Habannakah Al-Maydani. Dar Al-Qalam, Damascus, Syria; 2nd ed., Beirut, Lebanon, 1992.
4. Ibn al-Qayyim, Muhammad ibn Abi Bakr al-Jawziyya (1980). *Al-Amthal fi al-Qur'an al-Karim* (Parables in the Holy Qur'an).



- Edited by Nimer Al-Khatib, 2nd ed., Dar Al-Ma'rifa for Printing and Publishing, Beirut, Lebanon.
5. Al-Zarkashi, Badr al-Din (1991). *Al-Burhan fi 'Ulum al-Qur'an* (The Proof in the Sciences of the Qur'an). Dar Al-Ma'rifa, Beirut.
 6. Qutb, Sayyid (2004). *Al-Taswir al-Fanni fi al-Qur'an* (Artistic Imagery in the Qur'an). 17th ed., Cairo: Dar Al-Shuruq.
 7. Al-Zuhayli, Wahbah (1991). *Al-Tafsir al-Munir fi al-'Aqidah wa al-Shari'ah wa al-Manhaj* (The Enlightened Exegesis in Creed, Law, and Methodology). 1st ed., Dar Al-Fikr al-Mu'asir, Beirut, Lebanon.
 8. Noufal, Ahmad (1989). *Surat Yusuf: An Analytical Study*. 1st ed., Dar Al-Furqan, Jordan.
 9. Al-Jawhari, Isma'il ibn Hammad (1987). *Al-Sihah: Taj al-Lugha wa Sihah al-'Arabiyya* (The Crown of the Language and Authentic Arabic Dictionary). 4th ed., Dar Al-'Ilm lil-Malayin, Beirut.
 10. Hasan, Muhammad Kamil (1970). *The Qur'an and the Modern Story*. 1st ed., Dar Al-Buhuth al-'Ilmiyya, Beirut.
 11. Al-Zuhayli, Wahbah (1998). *The Qur'anic Story: Guidance and Clarification*. 3rd ed., Dar Al-Khayr.
 12. Al-Duqour, Muhammad (2007). *Qur'anic Stories: Their Objectives, Characteristics, and Methodology*. 1st ed., Dar Al-Fadilah, Amman.
 13. Abbas, Fadl Hasan (1978). *Qur'anic Stories: Their Inspirations and Insights*. 1st ed., Amman: Dar Al-Furqan.
 14. Al-Khalidi, Salah Abd al-Fattah (n.d.). *Qur'anic Stories: Presentation of Facts and Analysis of Events*. 2nd ed., Dar Al-Shamiyya, Beirut.



15. Ibn Manzur, Muhammad ibn Mukarram (1414 AH). *Lisan al-‘Arab* (The Tongue of the Arabs). Dar Sadir, Beirut.
16. Al-Qattan, Manna‘ (1416 AH). *Studies in the Sciences of the Qur’an*. 2nd ed., Riyadh: Maktabat al-Ma‘arif.
17. Abd al-Fattah, Afif (n.d.). *With the Prophets in the Qur’an*. Dar Al-‘Ilm lil-Malayin, Beirut.
18. Ibrahim Mustafa Al-Zayyat et al. (n.d.). *Al-Mu‘jam al-Wasit* (The Intermediate Dictionary). Dar Al-Da‘wa.
19. Ibn Faris, Ahmad ibn Zakariya (1972). *Maqayis al-Lugha* (Measures of Language). 2nd ed., Egypt.
20. Al-Raghib al-Isfahani, al-Husayn ibn Muhammad (1412 AH). *Al-Mufradat fi Gharib al-Qur’an* (Vocabulary of Rare Qur’anic Terms). 1st ed., Dar Al-Qalam, Damascus/Beirut.
21. Ahmad Noufal (2007). *Research and Writing Methodologies in Qur’anic Stories*. Amman: Dar Al-Fadilah.
22. Al-Amoud, Walid Muhammad Hasan (n.d.). *The Method of the Holy Qur’an in Presenting Doctrinal Issues*.